من تراب الطريق! (٢٥٧)

معجزة القرآن (*)

يقرأ المطالع للقرآن الحكيم : من قول الحق جل شأنه : " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " (هود : ١٣)، ويقرأ من سورة يونس : " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " (يونس : ٣٨)، ويقرأ فى سورة البقرة : " وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ " (البقرة : ٢٣)، ومن سورة الإسراء : " قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (الإسراء : ٨٨) .

وقد مضى على نزول القرآن الحكيم نيف وأربعة عشر قرنا، فما استطاع أحد أن يجاوب هذا التحدى أو يأتى بشىء مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .. وقل أن يوجد فى الكتاب العزيز آية ليس فيها ذكر الله عز وجل أو تمهيد أو تعقب لذكره . وقد نزل الكتاب المبين على مدى ثلاث وعشرين سنة وهو ملازم لهذه الحال وهذا التركيز التلقائى إلى أن انقطع نزوله بوفاة الرسول عليه السلام .

وما جاء فى الكتاب الحكيم من الأحكام أو القصص - إنما جاء تفريعا على التذكير بالله سبحانه وتعالى .. يبدأ منه ليعود إليه . لم ينقطع هذا التذكير قط فى أية سورة مهما صغر حجمها وقل عدد آياتها .

(*) المال ٢٠٠٩/٥/١١

وبهذا تفرد الكتاب المجيد عن كل كتاب آخر .. مقدس أو غير مقدس . واستحال أن يكون موضع تقليد سواء بالنسبة لسورة منه أو لعشر، وذلك لاستحالة توجيّه أى إرادة واعية لذاتها إلى ذلك التركيز التلقائى المطرد على ذكر الله وبداية كل شيء منه وإليه ثلاثة وعشرين عاما . لأن الإرادة الواعية لذاتها أيا كان حظها من الاقتدار والاستغراق - سرعان ما تمل وتجهد من وحدة الموضوع الذى لا يزيد ولا ينقص، وتعجز عن المحاكاة دون أن يظهر فيها الاصطناع والتكلف لستر الملل والإجهاد .

قالوا إن نزول الوحى على الرسول المصطفى كان دائما شديد الوطأة بدنيا، وكان يتخلف عن مجيئه رضًا وثقةً هائلان لديه عليه الصلاة والسلام، فلم يكن ما يوحى به إليه ثمرة تدبر وتفكير ونظر لوعي يراقب ذاته فيما يعيه ويتتبع مشاهداته ومعلوماته وأفكاره وخواطره ومصدقاته إلى أقصى ما يستطيع وينتقى عباراته فى روية وصبر وبعد موازنة ومفاضلة . لم يكن عليه السلام يرتقب وعيه لتقييد ما قد يوحى به إليه فيكون ردًا حصل عليه واقتنصه وصار منتسبا إلى ذاته كناتج من نواتج مقدرته .

لم يكن ما يوحى به إليه من عمله هو، أو مصدره ذاته هو، وعقله أو إرادته هو، أو أن من حقه أن يحجبه أو يمسه بأى تعديل أو حذف، لا هو ولا غيره . فكل آية نزلت عليه من آيات الكتاب المجيد وكل سورة من سوره ليس لها مصدر بشرى على الإطلاق، ويستحيل من ثم عليه هو أو على غيره من البشر أن يأتى بمثلها تقليداً أو محاكاة لها . لأن مصدرها هو الله تعالى، وهى من عند الله عز شأنه الذى انصرفت آيات الكتاب المبين إلى التذكير أو التمهيد للتذكير به أو التعقيب على هذا التذكير .

وبرغم ابتعاد اللغة العربية الآن - مقولة أو مكتوبة - عما كانت عليه إبان التنزيل، برغم ذلك ومعه زيادة الاختلاف فى اللهجات والأذواق والثقافات خلال أربعة عشر قرنا فى البقاع التى تتكلم العربية - فإنه قد صار الإيمان بإعجاز القرآن جزءًا لا يتجزأ من عقيدة المسلم .. عربيا كان أو أعجميا . ولم يعد ذلك موضع جدل أو نقاش أو مفتقراً لبينة أو إبانة لأنه

جزء من إيمان المسلم . وبات حمل المصحف أو حيازته أو قراءته أو سماع تلاوته - بات قربة إلى الله تعالى وفيه كل الغناء، ولم يعد ثم مجال بأى وجه لتجدى الكتاب المبين أو لأى محاولة لتقليد آياته وسوره رغم تعدد نسخه بملايين الملايين وتعدد المسلمين وقراء العربية بألوف الملايين !

لم يوجد من يفترى آية أو سورة أو سورا على القرآن الكريم، ولم يوجد من يدعى قدرته على شيء من ذلك، ولم يعد يشغل أحداً من المهتمين بالكتاب المجيد سوى حماية طبعاته المتزايدة من حذف كلمة، أو تحريف لفظ أو الإخلال بترتيبه، حماية لهذه المعجزة الربانية الباهرة التى طفقت تهدى البشرية من أربعة عشر قرنا وإلى ما شاء الله .